مجلة مدارات للعلوم الاجتماعية والإنسانية تصدر عن المركز الجامعي غليزان – الجزائر
العدد 01 جانفي 2020 ISSN: 2710-8880

جهاد وسيرة الحاج موسى بن الحسن الدرقاوي (1796-1849)من خلال كتاب صادر حديثا

Jihad and biography of Haji Musa bin Al-Hassan Al-Darqawi (1796-1849) through a recent book

أ/ بن سالم المسعود

Mr. Ben Salem Almessaoud

جامعة "زيان عاشور" الجلفة

Ziane Achour University- Djelfa

تاريخ الإرسال:2019/11/29 تاريخ القبول:2020/01/15

1.مقدمة:

إن من بين أبرز الشخصيات التي لم تنل حظها الوافر من الدراسة والإنصاف التاريخي هي شخصية شهيد الزعاطشة الحاج موسى بن الحسن المدني الدرقاوي الشاذلي المصري وهذا لعدة اعتبارات. وكتحصيل لذلك جاء هذا التجاهل لجهاد الحاج موسى بنتيجة سلبية مماثلة على صفحة من التاريخ الجهادي لبلاد أولاد نايل خلال فترة حوالي 19 سنة منذ أول استقرار للحاج موسى بمسعد سنة 1831 إلى غاية استشهاده رفقة فرسان من المنطقة في نوفمبر 1849 بواحة الزعاطشة وتُقطع رأسه وتُنقل إلى متحف باريس وهي ما تزال هناك إلى اليوم رفقة جماجم الشهداء من أمثال سي المختار التيطراوي وبوبغلة.

ولذلك سنحاول في هذه القراءة تقديم نبذة مختصرة عن سيرة الحاج موسى بناء على الكتاب الصادر حوله حديثا عن دار الجلفة إنفو للنشر والتوزيع[1]. وسنذكر جوانب من حياته الجهادية والدعوية ببلاد أولاد نايل باعتبارها حاضنته ومستقره وأرض فرسانه وفيها نزلت عدة حملات فرنسية لمطاردته أو حرب أتباعه إلى غاية استشهاده بواحة الزعاطشة التي انتقل إليها مع ثلة من فرسان أولاد نايل استجابة لنداء الجهاد هناك. لتنتهي سيرة الحاج موسى الذي حارب أعتى جنرالات فرنسا قسوة واجراما وهُم ماري مونج ويوسف ولادميروو إيربيون.

2. الجديد في الكتاب:

من خلال المطالعة الدقيقة لشتى مباحث الكتاب سنجد أن شخصية موسى بن الحسن الدرقاوي المصري تستحق فعلا الدراسة لأن كان محل كتابات عديدة خلال القرن التاسع عشر لا سيما في المصادر الفرنسية وفي فترة مبكرة جدا من عمر الاحتلال الفرنسي. ولا أدلّ على أهمية هذه الشخصية من أن عرّاب الصحافة الكولونيالية "أدريان بيربروغر" قد تحدث في مجلة "لومونيتور"، عدد 06 نوفمبر 1835، عن تحركات الدرقاوي واصطدامه بجيش الأمير عبد القادر في آفريل 1835. وسنجد بيربروغر يخصص مقالا في أول عدد من المجلة الإفريقية سنة 1856 وفي مقدمة ترجمته يقول بيربروغر "تخبرنا عن سيرة الحاج موسى وتجعلنا نشاهد كيف يبرز ويتطور مثل هؤلاء المتشددين الذين يثيرون البلد بصورة دورية. أناس لديهم قدرة على الخداع والإقناع بجرعات متساوية إلى درجة أننا لا نعرف كيف نسمّيهم!!".

أما عن أهم ما جاد به الكتاب فهو أنه قد فتح حيز البحث عن مقاومة الحاج موسى بن الحسن الدرقاوي في شتى مناطق الجزائر. كما أثار من جديد قضايا الدور اليهودي إبان الاحتلال الفرنسي. مثلما أعاد من جديد طرح قضايا المقاومة الشعبية في بلاد أولاد نايل التي كان لمقاوميها بصمة في إقليمها وفي جوارها ومع الشخصيات المقاومة وطنيا كالأمير عبد القادر والشيخ بومعزة وغيرهما. وهنا نجد أن الكتاب قد صحح مغالطة

تاريخية تحيل على أن المقاومة الشعبية ببلاد أولاد نايل قد انطلقت كرد فعل على حملة الجنرال ماري مونج سنة 1844 بينما هي قد انطلقت مع الدعوة الجهادية للحاج موسى بمدينة مسعد سنة 1831.

3. من هو موسى بن الحسن المدني الدرقاوي المصري؟

اختُلف في مولده ونسبه من حيث اسم الوالد وتاريخ المولد غير أن المتفق عليه بين المؤرخين هو أنه مصري المولد. فيقول المترجم العسكري آرنو أنه "موسى بن الحسن" مولود بضواحي مدينة "دمياط" المصرية. بينما يقول "الحاج قارة"، مفتي دلّس وكان يسكن المدية وله علاقة صداقة بالحاج موسى، أن اسمه الكامل هو "الحاج موسى بن علي بن الحسين". أما بالنسبة لتاريخ مولده فيقول العقيد ترومِلي أنه قد ولد في نهاية القرن الثامن عشر ليذكر في نهاية كتابه أن عمره كان 53 سنة عندما استشهد في حصار وقصف واحة الزعاطشة سنة 1849. وبالتالي فإن الحاج موسى قد ولد عام 1796م. وقد وجدنا في أكثر من مصدر وصف موسى بن الحسن بـ "الحاج" رغم أننا لم نعثر في أي من هذه المصادر على تاريخ حجه إلى مكة المكرمة ولهذا سوف نعتمد لقب "الحاج موسى" كما وجدنا في هذه المصادر.

4. في الأغواط مُضايقا من التيجانيين:

كان موسى بن الحسن قد انضم إلى جيش حاكم مصر محمد عليّ ضمن الفرق التي شاركت في حصار الباشا الأرناؤوط لمدة سنتين وبعدها رجع إلى القاهرة ليفرّ إلى طرابلس بعد هذه الأحداث. وعقب هجرته من مصر، صارت حياة موسى بن الحسن كلها ترحالا وتنقلات وأسفارا بدأها بالسفر من مصر وأنهاها بالسفر من بلاد أولاد نايل آخذا معه فرسانا إلى الزعاطشة مجاهدا أين استشهد. وأثناء ذلك تقول الروايات المختلفة أنه قد سافر إلى ليبيا وتونس والمغرب والجزائر وإسطنبول وفي الجزائر تنقل كثيرا بين شرقها وغربها ووسطها وجنوبها وشمالها. وتختلف تواريخ تنقلاته قبل دخوله الجزائر بين مصر وليبيا والمغرب وسوريا في كتابات العقيد ترومِلي والمترجم العسكري آرنو والمؤرخ لويس رين ورواية مفتي دلّس الحاج قارة، ولهذا فلن نتطرق إلى هذه الاختلافات لأنها لا تهمنا في موضوع جهاده ببلاد أولاد نايل.

يقول العقيد ترومِلي أن الحاج موسى سنة 1829 كان موجودا بالأغواط التي دخلها وهو يرتدي خرقة عبارة عن "غرارة" وعاش فيها من الصدقات التي نالها من المحسنين ليصبح معروفا فيها وبأتباعه الذين بنوا له زاوية ومنحوه بستانين. ولم يلبث أن غادرها إلى مسعد بسبب عدم الترحاب الذي وجده لدى أتباع التيجانية وخصوصا قائدهم "أحمد بن سالم". أما "لويس رين"، فيروي أن الحاج موسى قد كان مؤذنا بالأغواط في مسجد "الأحلاف" ثم غادرها بعد أن شرع في الدعوة الجهادية التي لم تجد لها صدى هناك. وبالنسبة لرواية المترجم العسكري "آرنو"، فان الحاج موسى وصل سنة 1829 إلى الأغواط التي مكث بها سنتين ووجد مضايقة من طرف قادة التيجانية فيها فغادر نحو مسعد

التي سبقته شهرته إليها وطيلة مكوثه بالأغواط، كان الحاج موسى مؤذنا بمسجد الأحلاف ليشرع في الدعوة إلى الطريقة الدرقاوية بعدما وصلته رسالة من شيخه في طرابلس تأمره بذلك فوجد الصّدّ والمضايقة من طرف التيجانيين ولم يتبعه سوى 04 أفراد من الأغواط وهُم "بوهلّة، بن الحاج، عبد الرحمان" و"محمد" الذي تزوّج الحاج موسى بابنته كما تحدث الحاج قارة عن سفر الحاج موسى نحو غرداية وتنقلات واتصالات جمعته بالبليدة بشيوخ المقاومة في المتيجة وهُم "الحاج الصغير بن سيدي علي بن امبارك" و"البركاني" و "بن سيدي الكبير بن يوسف" الذين دعوه إلى تحريض قبائل الصحراء على الجهاد المقدّس.

تزامنت دعوة الحاج موسى إلى الطريقة الدرقاوية مع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830. وقد وردت اليه رسالة من شيخه في طرابلس فيها أمر للحاج موسى بأن يكون داعيا بين سكان الصحراء والتل فشرع في دعوة أهل الأغواط للانضمام إلى الدرقاوية ولكن دعوته قوبلت بالرفض من أهل الأغواط وقد أجابه شيخ قصر الأغواط أحمد بن سالم بالقول "نحن نتبع الطريقة التيجانية".

أما لويس رين فيذكر أن الغزو الفرنسي للجزائر كان له التأثير القوي على نفسية الحاج موسى فلم يجد بدّا من تنظيم المقاومة ضد الفرنسيين وإعلان الجهاد غير أن ذلك اصطدم بالتأثير الطاغي للتيجانية بقصر الأغواط واعتقاد أهله أنهم في منعة من التهديدات ما أجبر الحاج موسى على مغادرة القصر وفي عين ماضي ثارت غيرة مرابطي التيجانية أمام انتشار دعوة الحاج موسى التي وجدت لها أتباعا بين أهل القصر والبدو منذ وصوله إلى الأغواط سنة 1829، فسببوا له المضايقات لينتقل بعد سنتين من ذلك إلى مسعد.

وخلال فترة وجوده بالأغواط (1829-1831) التقى الحاج موسى بمفتي دلّس "الحاج قارة". فيذكر الحاج قارة أن الحاج موسى جاء إليه من الأغواط إلى المدية سنة 1247 هـ (1831-1832) ونزل عنده بالمدية رفقة أتباع ألبسهم برانيس مرقّعة وهُم "بوهلة" و"عبد الرحمان بن علي" وهُم من سكان الأغواط. كما توجه الحاج موسى رفقة أتباعه إلى الونشريس في زيارة دينية إلى الشيخ العربي بن عطية بن سعيد بن عبد الله. وفي هذا اللقاء خاب ظن الحاج موسى في الشيخ العربي بن عطية الذي اعتبر دعوة الحاج موسى إلى الجهاد حيادا عن الصوفية ورغبة في السلطان. وقد أثّر انتقاد العربي بن عطية في أتباع الحاج موسى الذين تخلوا عنه مباشرة بعد ذلك. وهكذا تهيّأت الظروف القهرية بين مضايقات التيجانية وشيخ قصر الأغواط "أحمد بن سالم" وتخلي أتباعه من الأغواط عنه والصدّ الذي وجده لدى شيخ درقاويي الونشريس ... فكان الانتقال إلى مسعد ببلاد أولاد نايل لتبدأ السيرة الجهادية والدعوية للحاج موسى بن الحسن المديني الدرقاوي.

5. في بلاد أولاد نايل زعيما دينيا وقائدا عسكريا:

تمثل سنة 1831 حدثا مهما في سيرة الحاج موسى، إذ يذكر العقيد ترومِلي أنها السنة التي حلّ فيها الحاج موسى بقصر مسعد كأول محطة يستقر فيها ببلاد أولاد

نايل. بل ويضيف ترومللي بالقول أن الحاج موسى قد غادر الأغواط إلى مسعد بناء على أمر من شيخ الشاذلية وكانت شهرة الحاج موسى قد سبقته إلى هذا القصر فوجد كل الناس تواقة لاستقباله وكان انخراط أولاد نايل في دعوته كثيفا فبُنيت له زاوية وبيت لأنه نجح في نيل تقدير كل السكان الذين كانوا يرون فيه بمثابة مبعوث من السماء.

وفي قصور مسعد تعيش كل من أعراش أولاد عيسى الغرابة وبعض فروع أولاد سعد بن سالم وأولاد يحيى بن سالم وأهل القصور. وشكلت هذه الأعراش عضدا للحاج موسى الذي وجد الترحاب عند انتقاله إلى مسعد سنة 1831 ومكث هناك إلى غاية انتقاله سنة 1834 إلى الرباط الذي بناه بالقرب من قصر الشارف في منطقة "عين الخضراء" غير بعيد عن قصر الشارف.

ويصف المترجم العسكري آرنو بناء موقع "عين الخضراء" بأنه يشبه "تاقدمت" وهي أول قلعة عسكرية بناها الأمير عبد القادر في مكان حصين على بعد 08 كلم غرب مدينة تيهرت سنة 1836. وتتشكل قلعة تاقدمت من قصبة وحصن واسطبل ومصنع للنقود ومصنع للأسلحة ومطحنة البارود ومسجد جامع وحمام ومنشآت مدنية بينما وجدنا من خلال معاينتنا الميدانية لأطلال عين الخضراء أنها تتشكل من مسجد وسور فيه برجين ومجموعة من الديار ومهراس للبارود وهو موقع يحتاج إلى إعادة الاعتبار والتصنيف.

استقر الحاج موسى سنة 1834 في "عين الخضراء" وقد لاقت دعوته النجاح المنشود بهذه المنطقة حيث وفد عليه المريدون من كل حدب وصوب وسمحت له العطايا الكثيرة ببناء بيت ومسجد فاستقرار الحاج موسى وسط قبائل بلاد أولاد نايل الغنية والكثيرة سمح له بسهولة تجسيد مشاريعه الجهادية.

عندما أحس الحاج موسى بارتباط بعض أولاد نايل بطريقته سافر إلى المدية مع بعض أتباعهففي سنة 1249هـ (1833-1834) التقى الحاج موسى بالبليدة مع كل من الحاج الصغير بن سيد علي بن المبارك والبركاني وبن سيدي الكبير بن يوسف الذين حثّوه على إثارة قبائل الصحراء على الجهاد وزيادة أعداد الثوار ويذكر الحاج قارة نفسه أنه قد حاول ثني الحاج موسى عن الجهاد ومحاربة فرنسا بإفهامه أن هذه الأخيرة قوية، ولكن دون جدوى.

وقد استطاع الحاج موسى أن يجمع حوله جيشا في عين الخضراء، فنجد قبيلة عبازيزالشارف قد انخرطت بأكملها في الطريقة الدرقاوية بالإضافة إلى عرش الكرابيب من منطقة التيطري الذين راسلوه عدة مرات من أجل توسيع نطاق الجهاد وهكذا استطاع موسى بن الحسن الدرقاوي أن يجهز جيشا ينحدر جنوده من الصحراء ومن سكان القصور وقبائل التل الأوسط لتنضم إليها القبائل المحيطة بالمدية وهناك من يذهب إلى القول بأن كل قبائل التيطري قد انخرطت في جيش الحاج موسى الدرقاوي ومنها قبيلة "حسان بنعلي"التي التحقت بالحاج موسى عندما عسكر بالبرواقية.

في ربيع 1835 قرر الحاج موسى المسير بجيشه. وأعلن أن الجزائر العاصمة ستكون هي غنيمته واجتمع له

900 درويش مشاة و400 فارس في عين الخضرة وكان أغلبهم لا يملك سوى العصيّ وبنادق عتيقة وفي طريقه إلى العاصمة كان جيشه يزداد عددا من أفراد القبائل التي التحقت به ويوجد بينهم الكثير من المتطوعين غير النظاميين. وقد مكث الحاج موسى بجيشه عند قبيلة المفاتحة أياما.وعند وصوله إلى مشارف المدية صار جيش الحاج موسى يضم 1200 فارس وكان وصوله إلى المدية في الأيام الأولى لشهر آفريل 1835. وهناك طلب من السكان فتح الأبواب لدخول المدينة وتسليمه اليهود والمزابيين لقتلهم فرفض السكان طلباته وراسلوا الجنرال "دروويإيرلون" طلبا لنجدتهم ولكنه لم يقدم لهم أي وعد بالمساعدة. وأعلنوا أنهم لن يسمحوا سوى لقائد الدرقاوة بالدخول وحيدا وأغلقوا الأبواب أمام حشود الدرقاويين التي تدعمت ببعض بعض القبائل المجاورة. فعسكر الدرقاويون بالقرب منها.وهناك من يرى أن الجيش كان معه حوالي 2000 مسلم وفاجأ المدية بالدخول إليها. وبعد فتح المدية بفترة وجيزة قرر الحاج موسى المسير الى الجزائر لتحريرها ولكن القدر كان يخفي دسيسة نجح الفرنسيون في نسجها فوقعت معركة بين جيشي الأمير عبد القادر والحاج موسى.

عند الحديث عن موقعة "حوش وامري" الدامية بين الأمير عبد القادر والحاج موسى، تتجلّى لنا عدة أسئلة دفعة واحدة حول العوامل التي أدت إلى ذلك رغم كل الظروف المحيطة بالرجلين من وجود عدو مشترك محتل اسمه فرنسا ووجود أعداء داخليين متحالفين مع فرنسا إضافة إلى التنشئة الصوفية لكليهما وغيرتهما على العناصر المشكلة للهوية الإسلامية، إضافة إلى كونهما قائدين بعزيمة جعلتهما يحاربان فرنسا طيلة 17 سنة على الأقل.

والإجابة عن التساؤلات السابقة تحيلنا مباشرة على التخطيط الذي اعتمده الفرنسيون والمتمثل في سياسة "فرّق تسُد" لأن فرنسا كانت تعاني في السنوات الأولى لاحتلال الجزائر. ففي إقليم الجزائر والتيطري كان الوجود الفرنسي لا يتجاوز الجزائر العاصمة مع بعض الحملات الفاشلة خارجها. وبرز الحاج موسى كأول مجاهد حاول توحيد المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي في منطقة الوسط كما أشرنا سابقا. وهكذا فإن الخطر الفعلي الذي صار يُهدد فرنسا في الوسط هو ذلك المد الصاعد إليها من بلاد أولاد نايل انطلاقا من عين الخضرة وجارفا إلى صفه كل قبائل التيطري بقيادة موسى بن الحسن الذي قلنا أن له علاقات مع قادة شرشال ومليانة والمتيجة. فكان لابد من التعامل مع الظروف الطارئة بمكر وحيلة برز فيها المستشار اليهودي "جودا بن ديرون" باستغلاله اتفاقية الهدنة بين الأمير وحاكم وهران الجنرال ديميشال والذي بموجبه يمنع الأمير من التحرك خارج إقليم وهران. وبمجرّد مسير الأمير عبد القادر إلى التيطري لمحاربة موسى الدرقاوي (في آفريل 1835 كما أشرنا)، كان الحاكم العام ديرلون سيوافق على مقترح حاكم وهران الجديد، الجنرال "تريزال"، بالمسير إلى معسكر كرد فعل على مسير الأمير إلى الدرقاوي لمحاربته خلافا للحدود المرسومة بموجب معاهدته مع الحاكم السابق الجنرال

"ديميشال". ولكن مستشار الحاكم العام، اليهودي "ديرون"، سحره بأن أشار عليه بعدم تأديب الأمير وتركه ليعبر الشلف لملاقاة موسى بن الحسن الدرقاوي وهُنا تظهر جليّا نبوءة الجنرال "ديميشال" في تبريره لعقد معاهدة سلام مع الأمير عبد القادر حيث قال في مذكراته "من المؤكد أنني أستطيع محاربة العرب ببعضهم البعض".

تفاصيل الواقعة كانت بدايتها يوم 20 آفريل عندما انطلق الأمير من مليانة. وفي يوم 22 منه وعلى مسافة 03 فراسخ (15 كلم) من "أرباع جندل"، نواحي "وامري" بالقرب من "حوش عمورة"، التقى الأمير بالدرقاوي ولكن لحربه. فكان نصرا ساحقا للأمير الذي فقد 50 رجلا. ثم انطلق الأمير إلى معسكر كما أن الأمير قد أسر زوجة وابنة سي موسى وعاملهن باحترام ثم ألحقهنّ بسي موسى بعد موقعة المدية ضد الأمير عبد القادر، لجأ موسى بن الحسن الدرقاوي إلى الصحراء بينما يذكر لويس رين أنه لجأ من جديد إلى مسعد وأعاد من هناك تنظيم دعوته الجهادية.

6. الجانب الدعوي للحاج موسى بن الحسن ببلاد أولاد نايل:

على عكس باقي المناطق الذي حلّ بها الحاج موسى، فإن نشاطه الدعوي كان حافلا ببلاد أولاد نايل التي شجع بها إنشاء الزوايا. فإذا عرفنا أنه كانت له زاوية واحدة بالأغواط سرعان ما غادرها وزاوية في بني يعلى بمنطقة القبائل الصغرى وزاوية في متليلي، فإننا سنجد أنه في بلاد أولاد نايل قد بنى زاوية لأتباعه في قصر مسعد ورباطا بعين الخضراء غير بعيد عن قصر الشارف يكتسي الصبغتين الجهادية والدينية. كما أنه هو من أوصى ببناء مقرأة "الحاجب" لتحفيظ القرآن وتعليم اللغة العربية ومسجدها حيث تقع جنوب غرب مدينة الجلفة (حوالي 50 كلم) وهي قريبة من قرية "الهيوهي" حاليا التابعة لبلدية تعظميت وفي أقصى شمال بلاد أولاد نايل، يذكر المؤرخ "جولي" أن الحاج البشير العبزوزي، أحد أتباع الحاج موسى، كانت لديه مدرسة قرآنية بمراتع قبيلة "رحمان".

7. الحملات الفرنسية ضد أتباع الحاج موسى ببلاد أولاد نايل:

لقد صار الحاج موسى مصدر قلق للسلطات الفرنسية وأتباعها مع اتساع نطاق أتباعه في بلاد أولاد نايل وقبائل المدية وفي زمورة ببني يعلى بالقبائل الصغرى. وهذا الوضع جعل الحاج موسى مطاردا مع أتباعه من طرف شتى الحملات الفرنسية وأكثرها في بلاد أولاد نايل.

يذكر المترجم العسكري الفرنسي "آرنو" معلومة مهمة جدا حول جهاد الحاج موسى بداية الأربعينات. إذ يشير إلى أن الحاج موسى كان في المدية سنة 1840 عند أتباعه من قبيلة "بني حسن" ثم توارى إلى عين الخضراء بعد احتلال المدية من طرف الفرنسيين. وعند الحديث عن أتباع الحاج موسى في التيطري فإنه تتجلى أمامنا شخصية أهم قادته وهو سي قويدر التيطراوي الذي عيّنه الحاج موسى خليفة له في التيطري بعد موقعة

المدية في آفريل 1835 كما عرفنا سابقا. وسيرته تهمنا باعتباره كان أحد أقطاب الحركة الجهادية التي نظمها الحاج موسى الدرقاوي، وقد انتقل سي قويدر للجهاد في بلاد القبائل إلى أن استشهد سنة 1855. ويذكر المؤرخ الفرنسي لاديمير أنه قد وقعت معركة بالقبائل الكبرى قتل فيها الشيخ سي قويدر ونكّل رماة عمراوة بجثمانه وتمكنوا أيضا من إصابة ابنه سي المختار ثم قطعوا رأسه الذي سُلّم للسلطات الفرنسية وهو محفوظ إلى الآن في المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي بباريس.

بعد إلقاء القبض على سي قويدر التيطراوي في الخشم بنواحي وسارة سنة 1843 ثم أسره ونفيه إلى كورسيكا، بدأت تشتد المطاردة الحثيثة ضد الحاج موسى. فنُظمت حملة الجنرال ماري مونج نحو بلاد أولاد نايل سنة 1844. ويشير المترجم العسكريآرنو إلى أنه بظهور مونج في زاغز (1844) لجأ موسى إلى بني يعلى ومكث بها 03 سنوات ليقود هناك ثورات عديدة. ومع توسع انتشار السلطة الفرنسية إلى مواقع قبيلة بني يعلى وانتشار حملاتها العسكرية مهددة كل منطقة القبائل، عاد سي موسى إلى مسعد.

لم يكد يضع الحاج موسى قدميه ببلاد أولاد نايل، وبالضبط في مسعد بداية 1847 اثر عودته من بني يعلى، حتى تشكلت حملة أخرى قادها بصفة شخصية الجنرال ماري مونج الذي توغل إلى غاية مسعد بغرض إلقاء القبض على قائد الدرقاويين. ورغم أن الثمن الباهض الذي دفعته المنطقة في السنوات السابقة، إلا أنها ضلت وفية للجهاد وقادة المقاومين وهاهي تحتضن بقوة الحاج موسى الذي خرج من مسعد مطاردا وعاد إليها من القبائل الصغرى مطاردا وسيغدو مطاردا مرة أخرى. ويذكر الملازم مونجان، أن الجنرال ماري مونج قاد في شهر فيفري 1847 حملة انطلقت من جنوب المدية من أجل أن يقمع ثورة كانت ستبدأ بقيادة موسى بن الحسن. وقد تمكن الحاج موسى من النجاة من القبض عليه في مسعد فلجأ بسرعة إلى متليلي التي سبقته إليها شهرته فاستقبله أهلها بحفاوة. كما يذكر آرنو أن الجنرال يوسف قد نفذ حملة عسكرية في آفريل 1847 بهدف توسيع سيطرة الفرنسيين على المنطقة التي مازالت تحت تأثير الحاج موسى.

وفي سنة 1848 تم تنفيذ حملة ضد قبائل أولاد نايل الموالية للحاج موسى. فتم إرسال قوم من 300 فارس من بوغار ثم تبع ذلك حملة أخرى قوامها 300 حصان من المدية نفّذت غزوات ضد أولاد نايل غير أن الحملتين لم تنجحا في الوصول إلى كل قبائل المنطقة فصارت محل شبهة لدى السلطة الفرنسية ونتيجة لذلك عوقبت قبائل المخزن التي قادت الحملة وتم سجن كل من القيّاد بن عودة وابنه بوديسة ومحي الدين في سجن سانت مارغريت.وهكذا يتضح جليا أن فرنسا كانت حثيثة في طلب رأس الحاج موسى وأنها لا تغفر حتى لأتباعها إذا فشلوا في ذلك مهما قدموا من عرابين الولاء وفروض الطاعة.

كما تذكر صحيفة "المبشر" أنه في ماي 1848 وبالتوازي مع حملة الجنرال مونج ببلاد أولاد نايل، كان الآغا بن يحيى قائما على جمع الزكاة والغرامات المفروضة

على أولاد نايل الشراقة ومعه 500 فارس بينما كان جيش الآغا بن داود يحارب المجاهدين (المفسدين كما تسميهم الصحيفة) خصوصا من أتباع الحاج موسى الذي وصفته "المبشر" بأنه هو "سبب إنشاء الهلاك والضرر بهذه النواحي سابقا".

وهكذا يتضح جليا لنا أنه قبيل استشهاد الحاج موسى بالزعاطشة، كانت تنقلاته كثيفة بين متليلي ومسعد وأن أتباعه بقوا أوفياء له رغم كثرة الضربات والحملات. ويوضح ذلك آرنو في المجلة الإفريقية بالإشارة إلى أن موسى كان يتردد كثيرا بين متليلي وبلاد أولاد نايل من أجل جمع العطايا أو استقبال أتباعه الجدد.

8. استشهاده مع فرسان أولاد نايل بواحة الزعاطشة:

لقد حسمت فرنسا أمرها مع الحاج موسى بن الحسن وقررت القضاء عليه وعلى أتباعه في بلاد أولاد نايل. فسبق أن أشرنا إلى حملة الجنرال ماري مونج الأولى سنة 1844 ثم الثالثة سنة 1847 ثم الرابعة سنة 1848 وحملة الجنرال يوسف الثانية سنة 1847 وحملات أتباعها بقيادة كل من بن يحي وبن داود وبن عودة وبوديسة ومحي الدين. غير أن حملة الجنرال لادميرو ستكون هي أهم وأكبر حملة لإضعاف الحاج موسى وأتباعه.

ويشير الملازم مونجان إلى الظروف التي أدت إلى تشكيل حملة الجنرال لادميرو في ربيع 1849 فيذكر بداية تشكل انتفاضة سرية في جنوب المدية برز فيها الحاج موسى بدخوله الأغواط واستقباله من طرف السكان بترحاب وحتى الخليفة أرسل إليه هدايا فاخرة. وفي نفس الفترة بدأ بوزيان بتحريض الزعاطشة من أجل أن يقود مقاومة عامة أعطاها طابعا دينيا بتوجيه النداء إلى الزوايا والطرق الدينية وقد أرسل إليه سي موسى عددا من المتطوعين. أما التلي بلكحل، الآغا السابق لدى الأمير، فقد حرّض هو الآخر بعض بطون أولاد نايل ومنهم أولاد سي أحمد، وقد عسكر في نواحي مسعد بسبب عجزه عن الوصول إلى بوزيان. هذا الوضع لفت انتباه الحاكم العام الذي أمر في جوان بتكوين حملة من المدية تحت قيادة الجنرال لادميرو.

وقد توغل الجنرال لادميرو الى مسعد أين تم فيها تهديم دار الحاج موسوفي هذه الدار كان الحاج موسى قد تزوج ثانية وسكن مطمئنا بقصر مسعد وأكدت صحيفة "المبشر" دخول الجنرال لادميرو إلى قصر مسعد في جوان 1849.

ويذكر آرنو أن الحاج موسى قد اتخذ من متليلي مقرا لربط علاقات مع الأوفياء لطريقته وتكثيف المراسلات مع أهم زعماء الطرق الدينية بل إن الحاج موسى هو صاحب مشروع توحيد كل الطرق الدينية في طريقة واحدة وأثناء ذلك كان يتردد باستمرار على أولاد نايل.

وبعد اقتحام واحة الزعاطشة والمجازر التي ارتكبت فيها، خصوصا الشنائع التي اقترفها الزواف، نجد الجنرال ايربيون، قائد الحملة، يشير في مذكراته إلى أنه من بين القتلى وجدوا جثمان المرابط سيدي موسى الذي استشهد مع ستين مجاهدا جاؤوا معه من الغرب وبطبيعة الحال فإنه يقصد بلاد أولاد نايل.

ويذكر الرائد سيروكا إحصاء لعدد شهداء الزعاطشة المسلمين يوم الاقتحام 26 نوفمبر 1849 الذين بلغ عددهم 476 شهيدا مفرقين على عدة قبائل ومدن حيث أن شهداء أولاد نايل هم الأكثر عددا بمجموع 60 شهيدا سماها سيروكا كتيبة "الحاج موسى". كما يذكر الجنرال ايربيون أنه قد عثر على شهداء من مكة المكرمة والمغرب وتونس. وقد قام السفاح ايربيون بعرض الرؤوس المقطوعة لكل من شيخ واحة الزعاطشة بوزيان وابنه والحاج موسى بن الحسن الدرقاوي.

5.الهوامش:

1. مجموعة من المؤلفين، مقاومة موسى بن الحسن المدني الدرقاوي 1831 – 1849، دار الجلفة إنفو للنشر والتوزيع، الجلفة، الجزائر، 2017.